استعادة

التفاتٌ أنثروبولوجي مبكّر إلى تراث فلسطين

توفيق كنعان أبحاث في الطبّ والطقوس الشعبية

يرتبط اسم الطبيب والباحث الفلسطيني، الذي تمرّ هذا العام ذكرى رحيله السّتون، بدراسة التقاليد الزراعية والعمارة والطقوس الشعبية وتطوّرها عبر تاريخ فلسطين

القدس المحتلة ـ **العربي الجديد**

في صيف عام 1905، باشر توفيق كنعان الذي تخرّج من «الكلية السورية الإنجيلية» في بيروت (الجامعة الأميركية حالياً) عمله في المستشفى الألماني بالقدس، حيث جذبته المعتقدات والطقوس الشعبية المتعلّقة بالأوبئة، فبدأ جمْع «الحجب» (تعويذات تُعلّق وقايةً من المرض أو من أجل علاجه) وتدوين الخلفيات المرتبطة بها. اهتمامُ الطبيب والباحث الفلسطيني (1882 - 1964)، الذي تمرّ سنّون سنة على رحيله، إلى دراسة التراث عبر تمثّله في العادات والتقاليد الزراعية، والمعارف التي طوّرها الفلّاحون في فلسطين حول النباتات والأرض والتقويم، وكذلك الاحتفالات والمواسم، والتصوّرات المتوارثة حول الطفل والمرأة والحياة والموت، والعمارة التقليدية في المدينة والريف الفلسطينيَّين. بيّن تقديم معرض «يا كافي، يا شافي.. مجموعة توفيق كنعان للحجب الفلسطينية»، الذي نظّمته «جامعة بيرزيت» عام 1998، أنّ كنعان أخذ يشتري الحجب من مرضاه بدلاً من أتعابه كطبيب، في إشارة إلى محاولته التصدّي للخرافات والممارسات الخاطئة المنتشرة آنذاك، بالتزامن مع انكبابه على البحث الإثنوغرافي الذي يُعدّ من أبرز مؤسّسيه في مرحلة كان هذا الاهتمام يكاد يكون محصوراً لدى عدد من المستشرقين والباحثين الغربيّين الذين أقاموا في فلسطين والمنطقة العربية.

ضمّت مجموعة الحجب أكثر من ألف وأربعمئة قطعة، تعود أقدمها إلى عام 1912 وأحدثها إلى عام 1947، وكان يثبّتها على ألواح كرتونية ويكتب إلى جوار كلّ منها ملاحظاته الأوّلية التي تتضمّن اسمها بالعربية وما يقابله بالأحرف اللاتينية، وسنة اقتنائها، ومصدرها، وكيفية حصوله عليها، وسعرها إذا كانت مشتراة.

تلفت القيّمة الفنية جيزيلا هيلميكيه إلى أنّ أهمّية هذه المجموعة تأتي من ندرتها ونوّعها، وأنّ الكثير منها بدأ في الاختفاء في أيامه، وكان متوقّعاً ضياعها وفقدانها من الذاكرة الجماعية الفلسطينية، موضّحة أنّ الجزء الأكبر منها حلي تقليدية كُتب عليها نقوش غريبة، إلى جانب الأحجار التي نُقشت عليها الحجب أيضاً، وأجزاء من جذوع الأشجار وبقايا عظمية حيوانية، وقطع خشبية وجلود وصحون خزفية، كانت تُستخدم في طقوس معيّنة لدى المسلمين والمسيحيّين، وفق ما يذكّر كنعان من أجل التداوي وطلب الشفاء، كما ضمّت تعاويذ ورقية خُطّت عليها كتابات عربية بزخارف فنّية، كانت تُعلّق على جدران المنازل في تلك الفترة، معظمها جرى جمعها من مدينة القدس وقراها المحيطة، وكذلك من مدن فلسطينية مثل نابلس والخليل وبيت لحم والناصرة وطبريا وبافا والرملة واللد وغزّة، سواء كانت مشغولة في هذه الحواضر أو جلبها الحجّاج القادمون من جميع أنحاء العالم إلى القدس آنذاك، أو أتى بها الحجّاج الفلسطينيون من مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة. راكم كنعان ملاحظاته ونشر عشرات المقالات في هذا الإطار، قبل أن يُصدر أولى مؤلّفاته باللغة الألمانية بعنوان «المعتقدات الغيبية والطبّ الشعبي في أرض الكتاب المقدّس»، مستنداً إلى مجموعة من المصادر التاريخية في تفسير الطلاسم والتعويذات المستخدمة في التداوي بين أوساط الفلّاحين والطبقات الفقيرة غالباً، وإلى روايات شفهية دوّنها على لسان بعض المشايخ والمرضى أنفسهم، بالإضافة إلى تعليقاته الشخصية على هذه الممارسات.

إلى جوار انشغالاته في البحث والتأليف ضمن حقلَي الطبّ والتراث، انخرط كنعان، المولود في عائلة فلسطينية مسيحية، في النضال ضدّ الاستعمار البريطاني والصهيونية، كما تعكسه مقالاته التي كتبها بالإنكليزية والألمانية والعربية، وعبّر أيضاً عن تأييده للثورة الفلسطينية الكبرى عام 1936، ما دفع السلطات البريطانية إلى اعتقاله سنة 1939 وتقديمه إلى المحاكمة ثمّ الاعتقال لزوجته وشقيقته أيضاً.

بعد خروجه من السجن، واصل كتابة مقالاته السياسية، والتي نشرها في كتابَيه «قضية عرب فلسطين» و«صراع في أرض السلام» اللذَين أصدرهما بالإنكليزية عام 1936، وتضمّنا دفاعه عن مطالب الحركة الوطنية الفلسطينية أمام الرأي العام البريطاني ودعوتها إلى إضراب عام في السنة نفسها، وتأكيده على حقّ المقاومة ضدّ الهجرات اليهودية، والموت في سبيل ذلك. فقدّ كنعان بيته ومكتبته وثلاث مخطوطات في حيّ المصرارة بالقدس الغربية إثر هجوم العصابات الصهيونية عام 1948؛ خسارة ثقيلة أثّرت عليه كثيراً إلى درجة لم يتمكّن من تجاوُز الأمر حتى رحيله، لكنّ ذلك لم يحُل دون مواصلة العمل في فترة مهمّة، تسلّم خلالها الفلسطينيون إدارة المستشفيات في مدن عدّة بعد خروج المستعمر البريطاني، حيث شغل حينها منصب «الجمعية الطبية العربية لفلسطين» التي ساهم في تأسيسها وترأس تحرير المجلّة التي صدرت عنها لسبع سنوات.

بعد قرابة ستّين عاماً من البحث والتنقيب في التراث الفلسطيني، ترك دراسات ومقالات متنوّعة اعتمد فيها على مناهج الأنثربولوجيا في وقت مبكر، كما في كتابه «الأولياء والمقامات الإسلامية في فلسطين» (1927) الذي أتى ثمرة دراسة ومسوحات ميدانية، حدّد خلالها مواقع معظم المقامات في المدن والأرياف الفلسطينية، مع وصف دقيق لمعمارها وطبيعة بنائها بحسب الحقبات التاريخية التي شُيّدت فيها، وجميع الطقوس والعادات ذات الصلة بهذه الأضرحة، مع تثبيت سير أصحابها وحضورهم في الذاكرة الشعبية.

النصّ الكامل
على الموقع الالكتروني

توفيق كنعان

> انكبّ على البحث الإثنوغرافي الذي كان حكراً على المستشرقين

> انخرط في النضال ضدّ الاستعمار البريطاني والصهيونية

تراكُم حضاري

يستقدّ كنعان رؤيته في بحثه الانثروبولوجي إلى رؤية تحدّث حولها في عدد من كتبه، وتتّصل بالتراكم الحضاري لأرض فلسطين بدءاً من الكنعانية والآرامية والهلنستية، ثمّ الحضارة العربية الإسلامية التي أكّد على حضورها الأوسع والأكثر تأثيراً، ولم يغفل دراسة الغزوات الخارجية كالصليبيّين والمغول، لفهم التعدّد الثقافي للمجتمع الفلسطيني، الذي ينعكس في الأزياء التقليدية والمواسم والأعياد والطلاسم والخرافة وغيرها.

تدريب

دائماً هنا وهناك

باسم النبريص

قطاع غزّة معسكر إبادة من بيت حانون إلى سلك الحدود مع مصر. معسكر مفتوح، جار العمل عليه، كي ينكوي وعي المقاومة في كلّ المنطقة. لكن، هذا جانب واحد من الصورة. الجانب المقابل والأهمّ هو عبقريات مقاومينا ومن يديرهم، في إخشان جحافل المستوطنين العسكر، كلّ ساعة على مدار اليوم. لقد ولّى زمن المعجزات، كما قال خليل حاوي، ولكنّه عاد منذ السابع العظيم، وعلى هذا يجب أن تُركّز الصور وتُركّز الأقلام. مباركة، أيها الأبطال، تلك البطون التي حملتكم، وتلك الأثداء التي أرضعتكم.

مباركة عقول من دبّروكم على القتال، حتى بلغتم اليوم شأو النضال الأعلى، على مستوى العالم. لكم عاجزة كلماتي تجاه ما تجترحون وتفترعون وتجترعون من مواجهات. غدت منذ السابع العظيم، في مقام الأسطورة. أمّا الكلاب العربية التي تنبح عليكم... غدُها يقيم كما هو يومها الآن: في مزبلة التاريخ. مباركون يا من رفعتم رؤوسنا عالياً، حتى صرتم بالنسبة لنا جميعاً (نحن الذين وُلدنا في عراء الخيمة، لاجئين لأمّهات وآباء لاجئين، وتدرّبنا على مجالدة الفاقة، قبل أن نتعلّم الأبجدية، في مدارس وكالة الغوث)، حتى صرتم لنا مثل ديناصور مونتيروسو: لقد كان دائماً هناك. وفي حالتنا: هنا وهناك. ولهذا، رغم زوال بيوتنا وارتقاء شهدائنا، فإنّا لناتئين بكم، وما دمتم موجودين، فأرواحنا بخير.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

قصيدة

تحت غزّة غزّة ثالثة

كلُّ هذا الحبّ

يذرف صبيانُ غزّة بعضَ الضّحك، يقتسمون الدبّابة حتّى آلهتها في الغيوم، نجمع الاحتضار مع الاحتضار وفينا صبرا وشاتيلا أكثر من مرّة

رلى الجردي

كان يلاعب إبراهيم بالبدين الجدار،
وحين في الفم مات النّهارُ صرخ:
«إن كان لِيَدي هذا النَّعش، فاعثروا
خلف خطوط اللَّوز عن جسم كجسمي،
اجمله باطن الكفّين. ربّما يجْمعُ
ما تبقّى منّي، ربّما يترقرق هذا
الرُّكام».

بعد المجزرة، انفصال العين عن الصُّورة،
والعنب عن الالتماع، اقرأوا كلَّ العروق
عالياً، وخليل والاء، وكم هو فسيحٌ في
«إسرائيل» وتافهٌ هذا الافتراس، وكيف
لم نتقن
الدَّور، أرواحنا التي تناولوها دفعةً
واحدة.

يتباكى الرأس المُلتصق بالخوذة
حين يسأله العالمُ «لِمَ وحشيَّتك؟»،
فيلعبُ لعبةَ نفسِه في التّابوت
في الدَّار الأجنحة، عادت من البرّادات.
على
الجلد بقعُ الصّراخ وليس في المُقلة
غصنٌ
متين، فاليقين أنّهم خمسة وماتوا،
واليقين، قالوا
لها «إنّهم ليسوا في مكان، والوسادة
انفجرت
قبل أن تنقلي إلى قلبك تلك الرائحة».

أيمتى يمضي التُّراب
ويأتي بمعنًى آخر؟
تلحقُ بنا الورودُ الصّفراء، شبيهةُ
الحياة،
وأوراتوس وساتورن إلى الأنفاق،
فنهمس: «هجرنا الظّاهر لأجل المكان
المحجوب، وتحت غزّة غزّة
ثالثة والبحر وبراعم الكهرباء».

يتنازل الغمُّ عن اللُّغة أحيانًا، ويذرف
صبيانُ غزّة بعضَ الضّحك، يقتسمون
الدبّابة
حتّى أذنيها، حتّى آلهتها في الغيوم
نجمع الاحتضار مع الاحتضار وفينا
صبرا وشاتيلا، أكثر من مرّة، وبيروت
ساعة اليد. هي الآن كلمات، شظايا في
الجبين ويحطّ على الأجفان بكاء
طويل.

أصحيحٌ هذا البنزين في كاليفورنيا؟
الخرابُ الذي فتحتموه؟
والمانيا بين إبادتين، وكيف تتوب
عن الأولى بالثانية، تقايض أهدابًا
بأهداب
في معرض الكتاب، خصلةً بخصلة،
رغم نشيج الكائنات وعدنيَّة ولحم
فلسطين.
الحلم يأتي بأعداد هائلة، حيث لا
تنفُ الفكرة ويدسُّون في أيدينا ورقةً
لم تُلطّخ بشيء، بأيّ «إسرائيل»،
وتكونُ
المحاجرُ هي اللّون، والوجود حيًا لا
يتراجع، رغمَ الوجع المستقيم، وكلّ ما
مُنعنا
من انفاس، ومعنا جِنِين كانَّها في
مقامة

تُصحّح الماء والشّجر المقلوب.
يدٌ تقلّد يدَ الله ضدَّ الإنسان كلّه،
وعلى العرش الشّيء والنخّارات
الواقية
ربّما تحتفظ الشمسيَّة بالمطر
ويستأثر
الخردلُ بالحديقة، ربّما تسمح السّماء
بكلّ
شيء ويصل الفراتُ إلى غزّة ليتأكّد
من كتف
الحبيب بعد أن تمتم الشافعيّ: «هي
بغداد
وإن لم ترها قبل مجيء الأميركان، لم
تر الدُّنيا».
نتأخّرُ عن الموعد يومًا ما، وتزدحم
العين
بشاطئ تام. يغصُّ الضّوء بشعرها
أمام

الغُرف العمياء ويكون للموت موتٌ
آخر،
عصفورٌ حتفٍ خفيف، ونستند إلى
المَلل،
خذّ الكهولة، نزيح الشّمس قليلًا كي
لا يقع على وجنتَي الهرّة نمشٌ مزعج.

غير صالح للاحتلال، كلُّ هذا الحبّ،
سَعَة فلسطين، ولا الصّيف الذي
أحضر الشّتاء
لأجل نخل بَيسان.

(شاعرة وكاتبة لبنانية مقيمة في كندا. والقصيدة تذكر إبراهيم النّاهوك الذي فقد أسرته وبيته ويده، والشهداء: الشابّ خليل أبو حمادة، والطفلة آلاء قدّوم، والصحافيّة الشابّة آلاء طاهر الحسنات.. لأرواحهم ولكلّ شهيدات وشهداء غزّة والضفّة الغربيّة فيض النّور والسلام).

من معرض في بيروت للفنّانة باولا بيتوس بعنوان «جسر للحوار بين مدينة كوارتو واطفال مخيّمات اللاجئين في لبنان» (العربي الجديد)

معرض

مصطفى الحلّاج أحصنةٌ تصعد من اللوحة وطيورٌ تحلّق فيها

هكذا هو الزمن الفلسطيني

كان الفنّان الفلسطيني الراحل جزءاً من لوحته، بل جزءاً من الزمن المعلّق الذي يجعله النزوحُ والمنفى شبهَ ثابت وشبه ضائع في الوقت

عباس بيضون

في معرض ارتجله «غاليري صالح بركات» في بيروت دعماً لغزّة، كان قائماً بهذه الصفة، من دون أن تكون اللوحات المعروضة على صلة مباشرة بحرب غزّة، بل إنّها في معظمها مؤلّفة قبل الحرب بعقود، وبعضٌ من فنّانيها لم يعودوا على قيد الحياة، إذا سمّينا عارف الرّئيس (1928 - 2005) على سبيل المثال. لكنّ المعروض، وبينه جدار كامل لضياء العزّاوي، كان يليق به أن يُهدى إلى غزّة. لم يكن للمعرض، لذلك، أيّ نوع من الوحدة، وكان ممكناً أن يبقى الأمر كلّه قيد التكريم، لولا أنّ جانباً من جدار كان مخصّصاً للوحات غرافيكية لمصطفى الحلّاج (1938 - 2002)؛ الفنّان الفلسطيني الذي أحترق بالنار التي غزت مرسمه، وتدخّل هو لإنقاذ أعماله، ومنها واحد يزيد طوله على 140 متراً، وعُدّ لذلك أكبر لوحة في التاريخ. لا نستطيع أن نردّ لوحات الفنّان الذي غادر عالمنا، منذ أكثر من عقدين، للحرب على غزّة. من الصعب أصلاً أن نجد، في هذه الأعمال، البروباغندا السياسية التي شاهدناها في أعمال الثنائي شمّوط. مع ذلك خالجني شعور بأنّ غزّة، على نحو ما، موجودة في هذه المحفورات. أنّ الحصان الذي يتكرّر تقريباً في كلّ اللوحات، يمثّ، بطريقة ما إلى الفلسطيني اليوم، وهو في حركته الحرّة، وصهيله الذي يكاد يصعد من اللوحة، بالطيور التي تحلّق حرّة في الهواء الذي يعلوه، بالنساء السامقات كشرائح مديدة، بالصدور الخصبة، بالحيوانات الهائمة، كلُّ هذه التي يلحقها أحياناً ما يشبه البنادق، حيث العيون نفسها واسعة كالطلقات، والنساء يستطلن بسلاحهن. كلّ هذا، ليس بموضوعاته فحسب، ولكن أيضاً، وأكثر من ذلك، بما فيه من عمق زمني، من أسطورية راهنة، يكاد يكون في مجموعه غرنيكا أخرى، لتكن الغرنيكا الفلسطينية.

مصطفى الحلّاج الذي قابلناه في بيروت، التي فارقها بعد الاحتلال الإسرائيلي، كان فذّاً بشكله، بلحيته الشعثاء المسترسلة إلى ما لا نهاية، بشيخوخته المبكرة، ووجهه الذي يكاد يكون آتياً من التاريخ، بل يكاد يكون محفورة قديمة. لم نستغرب حين اطّلعنا على محفوراته، كان يبدو فيها وكأنّه يرسم نفسه. لقد كان جزءاً من لوحته، بل جزءاً من الزمن المعلّق، الذي هو زمن اللوحة. الزمن الذي يجعله الشتات والنزوح والمنفى شبهَ ثابت وشبه ضائع في الوقت، وشبه صادر عن أسطورة.

لوحةُ مصطفى الحلّاج ليست مباشرة، ليست حدثية، وليست بروباغندا سياسية. لقد كان يمتح من مصدر أبعد من ذلك. كان تاريخ المنطقة السحيق، في مصر والساحل السوري وبين الرافدين، هذا التاريخ كلّه، ومنذ أوّلياته وحتى لحظتنا الراهنة، هو بيته. كان في كلّ لوحة يرسم، من داخل هذا المدى وهذه المسافة، إذا تكلّمنا عن فلسطين، فإنّ فلسطين كلّ هذا العمق، العمق الذي يشمل الإنسان والحيوان والطبيعة والأشياء. لم يتوقّف الزمن في هذه المنطقة، لم يتوقّف خاصّة في فلسطين. إنّه في مجموعه، في توالبه، يملك هذه الوحدة التي هي اسم المنطقة، اسم فلسطين الذي يبقى ببقاء التاريخ.

قيل كلام عن سوريالية الحلّاج، عن رمزيته، لكن حرية الخيال عنده كانت تتحوّل إلى قدَر من السلاسة، يشبه الأغنية. كان الحلّاج هو الرائي، لكن أيضاً هو المغنّي. كان الأسطورة، لكن أيضاً الحكّاء، بحيث أنّ لوحاته، كما قيل حقّاً فيها، هي سرديات، هي أيضاً حكايا، وهي بدرجة ما تزيينات وبوستّرات. هكذا هو الحلّاج، هكذا هو الزمن الفلسطيني.

(شاعر وروائي من لبنان)

> حرية الخيال عنده كانت تتحوّل إلى قدْر من السلاسة يشبه الأغنية

مصطفى الحلّاج. 48 × 65 سم (1969)

فعاليات

في فضاء «بيت عام» ببيروت، يُعرَض، عند الرابعة من مساء اليوم الاحد، فيلم المخرجة الفلسطينية **مي المصري** **اطفال شاتيلا** (1998). يلي العرض نقاش مع قاسم عينا، مدير مؤسّسة «بيت اطفال الصمود» المعنيّة بتوفير الرعاية لابناء الشهداء الفلسطينيّين في لبنان، للحديث عن واقع الاطفال في المخيّمات.

تنطلق اعمال الدورة الثانية من **منتدى فلسطين** صباح السبت المقبل في «المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات» بالدوحة و تتواصل لثلاثة ايام. يناقش المشاركون قضايا عدّة؛ منها: نظام الابارتهايد؛ والاستيطان، والقضية الفلسطينية في مناهج التعليم، ومستقبل المشروع الوطني الفلسطيني، وانظمة الرقابة الاستعمارية والسيطرة على السكّان، وحركات التضامن مع فلسطين.

تحت شعار **اوقفوا تسليح إسرائيل، اوقفوا الإبادة الجماعية**، دعا ناشطون مؤيّدون للحقّ الفلسطيني للاحتجاج امام مكتب شركة «تيرما» لتصنيع الاسلحة في مدينة لايدن الهولندية، عند الثالثة والنصف من مساء الاربعاء المُقبل. تزوّد الشركة الكيان المُحتلّ بقطع لطائرات حربية تقصف غزّة منذ اربعة اشهر.

بهدف الكشف عن مدى التسليح الفرنسي لحرب الإبادة في غزّة والعمل على إيقافه، يلتقي صانع الافلام الفرنسي **ماثيو ريغوست** مع الباحث **باتريس بوفيريه** والمُصوّرة **آني بال**، في ندوة بعنوان **التعاون العسكري فرنسا .إسرائيل: تحصيل معلومات من اجل التحرُّك**، عند السابعة من مساء 12 الشهر الجاري في «مجلس العمل» بباريس.